الطبالة و الفجالة .. اسمان لمنطقة واحدة

إذا كانت المدن و المناطق تحمل أسماء الملوك والسلاطين . . فإن عندنا منطقة تحمل اسم فنانة . . أو مطربة . . أو حتى طبالة أى تدق على الطبول ! !

ففى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر فى مصر ، كان الصراع على أشده على زعامة المنطقة : كان يتنازع عليها الخليفة العباسى ـ السنى ـ فى بغداد القائم بأمر الله . . والخليفة المستنصر بالله الفاطمى ـ الشيعى ـ فى مصر .

وحدث أن وقعت معركة حربية انهزم فيها الخليفة العباسى ، فانطلقت السيدة نسب طبالة ومطربة الخليفة الفاطمى تغنى وتطرب معلنة ـ ابتهاجها بهزيمة العباسيين . . وسمعها الخليفة الفاطمى فأشجته وأسكرته وأطربته . . وفى لحظة فرح وابتهاج أقطعها إقطاعية . . منحها أرضاً هبة لها ، بدلاً من المنح و العطايا التى كانت غالباً من المال : من الدنانير والدراهم .

ولأن الخليفة كان كريماً ، وجاءت كلمات أغانيها على الوتر الحساس ، فهى بعد أن أعلنته بهزيمة منافسه الخليفة العباسى . . بشرته بقرب زوال حكم منافسه . . فكان قراره منحها أرضاً واسعة قرب باب البحر .

وكان نهر النيل يصل حتى هذه المنطقة . ولم يكن أحد يعرف وقتها اسم هذه الفنانة التى حصلت على هذه المنحة الغالية بعد أن أطربت الخليفة . ولكن الناس كانوا يعرفون مهنتها . . كانت مجرد « طبالة » تدق الطبول وتغنى على دقاتها ما تشاء . .

وتسلمت هذه الطبالة الأرض . . فعرفت باسم « أرض الطبالة » تلك هى بداية حى : الفجالة ؛ أى كانت جائزتها حياً بكامله هو حى الفجالة ، وحملت المنطقة لسنوات عديدة اسم الطبالة . .

إلى أن جاء أمير الجيوش بدر الجمالى فبنى بالقرب منها وحولها عدداً من البساتين ، عرفت باسم البساتين الجيوشية ، وكان أولها من زقاق الكحل المعروف الآن بشارع الدشطوطى .

ومع الزمن تحولت المنطقة إلى برك وتلال ، بعد أن أخذ النيل ينحسر عنها وعما حولها ويتحرك غرباً . . وبدأت القرى تتحول إلى مناطق مهملة ، وكان أكبرها قرية كوم « أبو الريش » .

وعاد التاريخ يذكر اسم المنطقة أيام الحملة الفرنسية على مصر ، ففى عام ١٨٠٠ عندما ثارت القاهرة ضد الجنرال كليبر خليفة الجنرال بونابرت ، تحولت منطقة كوم «أبوالريش » إلى مركز للثوار ، يتحصن فيه الثوار والأتراك ، وأصبح هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار ، لأنه قائم على أكمة تقطع الطريق والمواصلات بين جامع الظاهر، الذى أقام فيه الفرنسيون قلعة مسلكوسكى والمعسكر العام للجنود الفرنسيين فى الأزبكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينيه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال روبان على هذه الأكمة أو التل ، وبعد معركة ضارية احتل الجنود الموقع وتحصنوا فيه ، واحتلوا كوم « أبو الريش » كله ، وأقاموا فيه الاستحكامات .

وعندما حاول الثوار استرداده مرات عديدة . . ردهم الجنود على أعقابهم ، واستمر القتال حوله إلى صبيحة يوم ١٣ أبريل ١٨٠٠م ؛ حيث رسخت فيه أقدام الفرنسيين .

وحول الفرنسيون أرض الطبالة هذه من أرض غير معبدة إلى شارع يمتد من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوى . وكان السالك فى هذا الشارع يجد عن يمينه فى جهة باب الشعرية القرية التى عرفت باسم قرية « كوم الريش » وقد تحولت إلى تلال . أى إن الفرنسيين هم الذين أصلحوا شارع الفجالة ، وجعلوه ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى عند المكان المعروف باسم الشيخ شعيب .

إلى أن جاء عصر الخديو إسماعيل لتدخل المنطقة عصراً جديداً ؛ لتتحول من مزارع وبرك ترويها مياه الفيضان إلى منطقة سكنية من أجمل مناطق القاهرة . .

وكان أول ما يستقبل الزائر أو السائح عند وصوله إلى القاهرة عن طريق السكة الحديد التى بدأت أيام سعيد باشا ، ثم قفزت أيام الخديو إسماعيل هو منطقة الفجالة .

وقد حملت هذا الاسم بسبب مزارع الفجل وحقوله التى تغذى أحياء القاهرة الفقيرة . وكان غذاء شعبياً يقبل عليه المصرى ، حتى أن الأجانب الذين حاولوا الهجوم على الخديو إسماعيل كانوا يصفون الفجل بأنه الغذاء القومى للمصريين . ومن أجل هذا حمل الحى اسم الفجالة نسبة إلى زارعى الفجل ، الذين كانوا يسكنون فى بقايا قرية « كوم أبو الريش » بعد أن تخربت وتحولت إلى مجموعة من الخرائب والأطلال ، وكانت تعد أقبح دعاية للقاهرة .

وكان ميدان المحطة الحالى عبارة عن مجموعة من التلال والكثبان ، فقام الخديو إسماعيل بإزالة تلك الخرائب والتلال ، واستخدم أتربتها وناتج الهدم فى ردم البرك والمستنقعات المنتشرة فى المنطقة الممتدة بين حى الفجالة وحى السكاكينى ، وقام بتسوية المنطقة كلها بما فى ذلك ميدان المحطة الحالى وقسمت أرضها وزرعت فيها الحدائق ، وخطت فيها الشوارع ، وبنيت فيها مجموعة من القصور الفاخرة لا يزال بعضها قائماً حتى الآن ، وتحولت المنطقة إلى حى من أجمل أحياء القاهرة السكنية . وأقبل الناس على السكن فيه ، وارتفعت قيمة الأرض ، ووصل سعر المتر فيها كما يقول د . سيد كريم إلى مالا يقل عن جنيه ، بعد أن كان سعره لايزيد عن بضعة قروش ، وكان هذا فى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين !!

وكان من أهم ما تم شقه من شوارع فى المنطقة شارع الفجالة نفسه ، وحدث هذا فى الوقت نفسه الذى شق فيه إسماعيل ـ كما يقول على باشا مبارك ـ شوارع كلوت بك ، ومحمد على ، وعابدين ، وعبد العزيز ، وإبراهيم ، والموسكى ، والسكة الجديدة .

وهكذا نهض حى الفجالة ، وبدأ الحى ينمو وينتظم ابتداء من ترعة الإسماعيلية إلى سور القاهرة عرضاً . ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولاً ، وبنيت الأرض المملوكة للحكومة ، وشيد فيها الأهالى مبانى عظيمة وقصوراً فاخرة تحيط بها الحدائق .

وممن سكن المنطقة وبنى فيها عائلة بطرس باشا غالى ناظر النظار ، وفيها ولد الدكتور بطرس بطرس غالى السياسى المصرى ، الذى أصبح سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة فى التسعينيات من القرن العشرين .

وبسبب قربه من باب الحديد حيث محطة السكك الحديدية ، كثرت فيه الفنادق واللوكاندات رخيصة الثمن ، والمطاعم التى كانت تقدم وجبات شعبية رخيصة الثمن .

وكعادة الأجانب الذين يفضلون سكنى المناطق الجديدة أقبل الشوام و الأروام ، ومعهم الأقباط ، على السكنى فى حى الفجالة . . ومعهم نسبة كبيرة من الخواجات والتجار . وحتى تكتمل الخدمات وضرورات الحياة ، أقيمت الكنائس لكل الطوائف المسيحية ، فوجدنا الكنيسة الأرثوذكسية ، والكنيسة الإنجيلية وكنائس الأروام . ووجدنا المدارس الأجنبية التى يقبل عليها ـ مع الأجانب ـ الإخوة الأقباط .

ولأن الشىء بالشىء يذكر ، وجدنا الحانات و البارات تنتشر فى حى الفجالة حيث الأجانب و الأروام ، ولم نجد المقاهى إلا فى العصر المتأخر ؛ لأن الحانات والبارات تجد زبائنها ممن يقيم فى المنطقة ،أما المقاهى فهى تنتشر حيث الأحياء الشعبية للمسلمين . .

وممن سكن الحى من الأدباء : سلامة موسى الصحفى الكاتب الاشتراكى فى البيت رقم ٥ بحارة ميخائيل جاد فى الثلث الأول من شارع الفجالة ، والدكتور جمال سرور أستاذ التاريخ الإسلامى الذى سكن فى ٩ شارع الفجالة ، والدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة بالجامعة الذى أقام فى بيت أقيم عام ١٨٩٠م غير بعيد عن جنينة بازرعة خلف المقسى ، وكذلك أسرة كامل صدقى باشا الوزير الوفدى ، ولهذا يحمل

الشارع الآن اسم الرجل . . وكذلك الأديب والكاتب والمؤلف لمعى المطيعى الذى سكن لمدة ٤ سنوات فى المنزل رقم ٤٦ بشارع الفجالة وفيه قبض عليه . .

● من شارع للثقافة إلى شارع للأدوات الصحية

وشيئا فشيئا تحول شارع الفجالة إلى شارع للثقافة والكتاب فى مصر ، وليس للقاهرة وحدها . وفيه أقامت دور الثقافة فروعاً لها . . مثل دار نهضة مصر ، ودار المعارف ، ودار سعد ؛ لتصبح وغيرها مراكز للثقافة والمعرفة . ومن لايجد كتابا فى غيرها كان يجد غايته فى مكتبات الفجالة .

ولكن لماذا هذا المكان بالذات ؟! لقربه من باب الحديد ؛ حيث أبناء الأقاليم والمحافظات الأخرى . كانوا يأتون لشراء ما يحتاجون ، ثم يعودون سريعاً إلى بلدانهم . .

وامتد النشاط الثقافى للشارع إلى الكتب المدرسية ، وإلى الكتب الخارجية المساعدة للطلبة . ولكن شيئاً فشيئاً تحول شارع الفجالة من مكان للثقافة العامة لتغلب عليه صفة شارع الكتب المدرسية واحتياجات التلاميذ ، وانزوت مكتبات الثقافة العامة . .

ثم جاء التطور الثالث فانزوت ـ إلى حد ما ـ مكتبات الكتب المدرسية ، واقتصرت على مساحة قليلة من الشارع والحى . . لتتحول المحال أغلبها إلى تجارة . . الأدوات الصحية ! . وهكذا تغلبت الأدوات الصحية على الأدوات المدرسية . . وعلى الكتب الثقافيه معاً . . هل يعنى هذا صورة لما حدث لتطور المجتمع المصرى ؟! الجواب لك عزيزى القارئ !

● الفجالة .. فى بداية القرن العشرين :

وإذا رجعنا إلى خرائط القاهرة فى بداية القرن العشرين ، وبالذات عام ١٩١٢م، نجد الشوارع والحارات التالية على الخريطة وعلى أرض الواقع . . نجد ما عرف باسم شارع الملكة نازلى شمالاً من عند ميدان باب الحديد ، ونجد قسم شرطة الأزبكية بين شارعى الملكة نازلى « رمسيس حالياً » والفجالة . . ونجد شمالى شارع الفجالة شوارع :

قصر اللؤلؤة . . بستان الكافورى . . بستان المقسى أو المكس . وحول شارع الظاهر نجد فى بركة الرطل قصر اللؤلؤة . . وشوارع حبيب حلبى . . غالى . . الحكيم. وتتقاطع كلها من الشرق مع شارع البكرية ثم بركة الرطل ، ثم شارع الجد فشارع الجميل ، ثم شارع أبو الريش ، وهو اسم القرية الأصل أو القرية الأولى .

وجنوبى شارع الفجالة الذى كان يحمل اسم سكة الفجالة من بدايتها عند شارع الخليج المصرى ، كنا نجد شارع الطبلة وربما كان المقصود « الطبالة » وامتداده شارع الشمبكى . . وامتداده الثالث يحمل اسم بين الحارات ، الذى يصب فى ميدان باب الحديد عند التقائه بشارع باب البحر ، وكان يتقاطع معه من الجنوب حتى باب البحر درب الإقماعية ، وسكة سوق الزلط .

وبحكم من سكن الفجالة من جاليات أجنبية عربية وشامية وغربية ، نجد عديدًا من المدارس الأجنبية ، و الكنائس . . و المساجد . .

● **من المدارس نجد :** مدرسة الروم الكاثوليك قرب شارع الملكة نازلى « رمسيس الآن » . . ومدرسة البنات للأمريكان بين شارعى الفجالة والشمبكى . . ومدرسة التوفيق للأقباط الأرثوذوكس على شارع بركة الرطل . . وغير بعيد عنها نجد كلية الفرير على شارع البكرية جنوبى الظاهر .

● **ومن الكنائس نجد :** كلية وكنيسة اليسوعيين على شارع الملكة نازلى ، ويحدها من الشرق شارع قصر اللؤلؤة وجنوب بستان المقسى ، وعلى شارع الفجالة نجد كنيسة الكلدان الكاثوليك . وغير بعيد عند حارة النصارى جنوب الفجالة نجد كاتدرائية مار مرقس ، والبطريكخانة ، ومدرسة للأقباط الأرثوذوكس غربى شارع كلوت بك . ونجد كنيسة الروم الكاثوليك بين شارعى الظاهر وقصر اللؤلؤة فى قلب الفجالة ؛ أى غير بعيد عن مدرسة الروم الكاثوليك ، ونجد كنيسة الأرمن بجوار المستشفى القبطى ، وكنيسة السريان بين شارعى نازلى و القبيسى .

● **ومن المساجد نجد** : فى أقصى الغرب مسجد أولاد عنان بين شارعى رمسيس و الجمهورية ، وكان اسمه وقتها شارع نوبار ؛ لأن نوبار باشا أول ناظر للنظار أقام بيته فيه . . ولا نجد شمال شارع الفجالة مسجداً واحداً . أما جنوبه فنجد : جامع الطواشى ، وجامع سيدى أحمد شهاب الدين ، وجامع محمد عيسى التركمانى ، وجامع سيدى الفرا ، وجامع سيدى محمد البحر على حافة شارع باب البحر . فهل حمل الشارع الاسم من باب البحر حيث كان بحر النيل يصل إلى هذا الموقع ، أو نسبة إلى سيدى محمد البحر ؟ . . وكل هذه المساجد تقع بين الفجالة وحارة النصارى وباب البحر . .

ولأهمية الحى وللمساعدة على تعميره وتشجيع السكنى فيه ، تم ربطه بوسائل المواصلات العامة ، فكانت تقطعه وتخدمه خطوط الترام رقم ٣ من العتبة الخضراء وميدان الأوبرا ثم ميدان محطة مصر ثم ينتهى عند العباسية .

وخط ترام رقم ١٠ ، وكان يبدأ من العتبة الخضراء إلى ميدان الأوبرا ، إلى ميدان محطة مصر وينتهى عند السكاكينى . وكذلك خطوط ترام ١٥ و ١٧ السكاكينى ـ درب الجماميز والمحطة وقصر النيل . . وعابدين وهكذا . .

وكانت تخدم الحى من خطوط الأتوبيس الخط رقم ١٥ من ميدان محطة مصر إلى بيت القاضى ، وخط رقم ٢٥ بين ميدان الأوبرا والعباسية .

●● وفى خريطة القاهرة عام ١٩٥٢ نجد تغييرات كثيرة . . نجد بركة الرطل أصبحت بركة الرطلى ، وتغيرت بعض المسميات . . كلية العائلة المقدسة . . مدرسة الفنون الطرزية . . وأصبح شارع الفجالة يحمل اسم شارع كامل صدقى باشا ، ونجد بقايا سور مصر القديم بين شارعى كامل صدقى وباب البحر . أما شارع الملكة نازلى ، فأصبح اسمه شارع الملكة . . ثم سرعان ماحمل اسم شارع النهضة بعد إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية ، وبعد وضع تمثال نهضة مصر ، الذى نحته وأعده مثّال مصر المعاصر محمود مختار . ونجد ميدان باب الحديد وقد حمل اسم ميدان المحطة ، واختفى اسم شارع الطبلة ، وكذلك اسم سوق الزلط . .

● **النيل .. كان هنا !**

ولكن ما حكاية المكس أو المقسى أو المقس ؟ هى أولاً المكوس أى الجمارك . وكان فى هذا الموقع يقع ميناء القاهرة النهرى لأن النيل كان يصل إلى هنا ، وظل هذا الموقع ميناء القاهرة حتى نقل إلى بولاق بعد أن تحرك النيل غرباً .

ولما قضى صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية ، وأنشأ دولته الأيوبية ، شرع يجمع العواصم الأربع : الفسطاط « ٦٤١م » ، و العسكر « ٧٥١م » ، والقطائع «٨٧٠م» ، والقاهرة المعزية « ٩٦٩م » فى صعيد واحد ؛ ليتخذ منها عاصمة موحدة تتفق وجلال إمبراطوريته . . ولكى تكون قادرة على رد هجوم الأعداء أخذ يحيطها بسور عظيم . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه خلفاؤه . وهو يمتد من أثر النبى جنوبى الفسطاط فى مصر القديمة ، وينتهى عند قلعة المقس . . وهى القلعة التى حدد مكانها العلامة الجغرافى محمد بك رمزى بعمارتى الأوقاف وراتب باشا المجاورتين لجامع أولاد عنان « الآن مسجد الفتح » من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد . .

وباب البحر منذ زمن الخليفة الفاطمى كان يخرج منه الخليفة ، عندما يقصد التوجه إلى شاطئ النيل بالمقس . وكان هو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير ، الذى أقامه جوهر الصقلى فاتح مصر ليقيم فيه المعز لدين الله الفاطمى . .

وكانت منظرة الدكة يجلس عليها الخليفة فى الأيام الحارة يتنسم الهواء العليل على شط النيل ، وكان لها بستان عظيم بجوار المقس . وقد عمر البستان بالمبانى فيما بعد ، وصار يعرف بخط قنطرة الدكة ومنظرة المقس . .

وقد مد صلاح الدين سور بدر الجمالى من شماليه ويتجه غرباً حتى شاطىء النيل الشرقى ؛ حيث أقيم حصن المقس المنيع . وكان السور الشمالى يبدأ من غرب باب الفتوح ، ثم يسير غرباً إلى الجنوب الغربى ، ثم بالقرب من شارع الخليج المصرى إلى خلف سكة الفجالة وشارع الطبلة حتى ميدان باب الحديد، حيث نجد بقايا منه على طول هذا الاتجاه الذى ينتهى بقلعة المكس . وقد زالت القلعة ولم يبق لها أثر اليوم ، وكان قد شيد بجوارها جامع المقس ، الذى عرف باسم جامع أولاد عنان .

●● وعن قلعة المقس ومنظرة المقس وجامع المقس يقول المقريزى ص ٣٧٧ ج١ وص ٤٨٠ جزء ١ وص ٢٨٣ ج٢ : « إن السلطان صلاح الدين لما عمر السور الثالث للقاهرة عام ٥٦٦ هـ وقت وزارته للخليفة العاضد ، زاد فى هذا السور القطعة التى من باب الشعرية إلى باب البحر ، وبنى قلعة المقس على شكل برج كبير فى نهايته السور الغربى على شاطىء النيل بحرى جامع المقس فى مكان منظرة المقس ، التى كانت على النيل ، وقت أن كان يمر تحت المقس من الجهة الغربية . وكانت هذه القلعة قائمة إلى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسى ، عندما جدد جامع المقس فى عام ٧٧٠ هـ وجعل فى مكانها جنينة . . » .

وبما أن جامع المقس محل جامع أولاد عنان بشارع إبراهيم باشا ، الذى ظل حتى السبعينيات من القرن العشرين ليتم فكه ويقام مكانه جامع الفتح الآن ، كما أن أجزاء من السور الذى أقامه صلاح الدين بين باب الشعرية وباب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم ، كما هو مبين على خريطة القاهرة الحالية . وبما أن هذه القلعة كانت واقعة فى نهاية هذا السور وعلى امتداده من الجهة الغربية ، فيكون مكانها الأرض القائم عليها اليوم عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان ـ الفتح ـ من الجهة البحرية بميدان باب الحديد ، كما قال العلامة محمد بك رمزى .

ويستفاد مما قاله المقريزى فى موضوع الجزيرة التى تربت ببحر النيل عام ٦٨٠هـ أن مجرى النيل القديم تجاه باب البحر ، كان إلى تلك السنة ماراً بميدان باب الحديد فميدان محطة مصر فشارع غمره فشارع مهمشة ، ومتجها إلى الشمال الغربى حيث يمر تحت سكن ناحية منية السيرج .

وبما أن باب البحر الذى يعرف اليوم بباب الحديد ، كان واقعاً على مدخل شارع فم باب البحر من جهة ميدان باب الحديد ، فيكون ساحل باب البحر الذى يشير إليه المؤلف واقعاً بميدان باب الحديد وما جاوره من شارع الملكة نازلى من جهته القبلية ، وما جاوره من محطة كوبرى الليمون من جهته البحرية .

****

. . وتحول شارع الفجالة إلى سوق لبيع الأدوات الصحية بعد أن كان يقدم للناس كل فروع الثقافة .

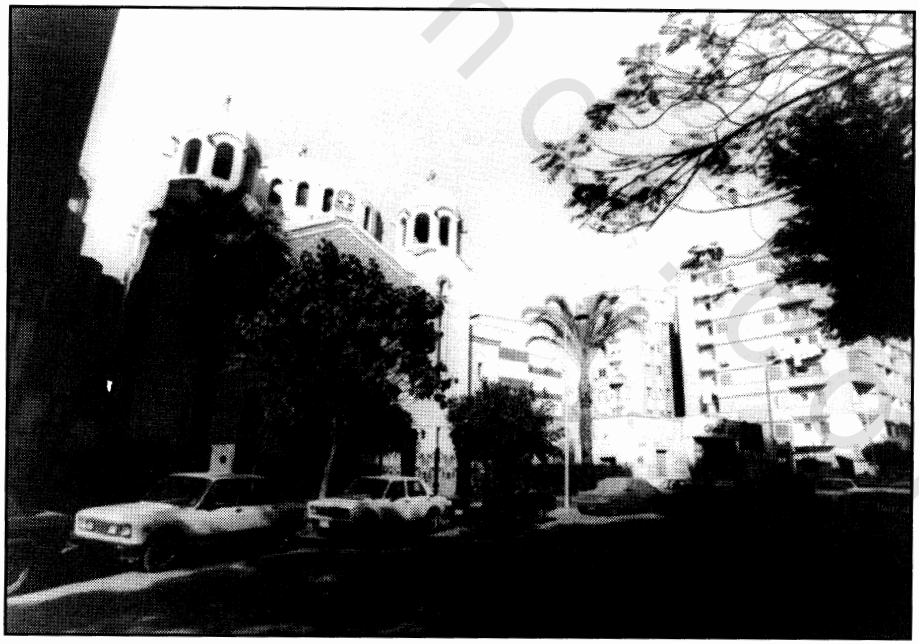

الفجالة . . حى حديث تنتشر فيه الكنائس لكل الطوائف المسيحية .

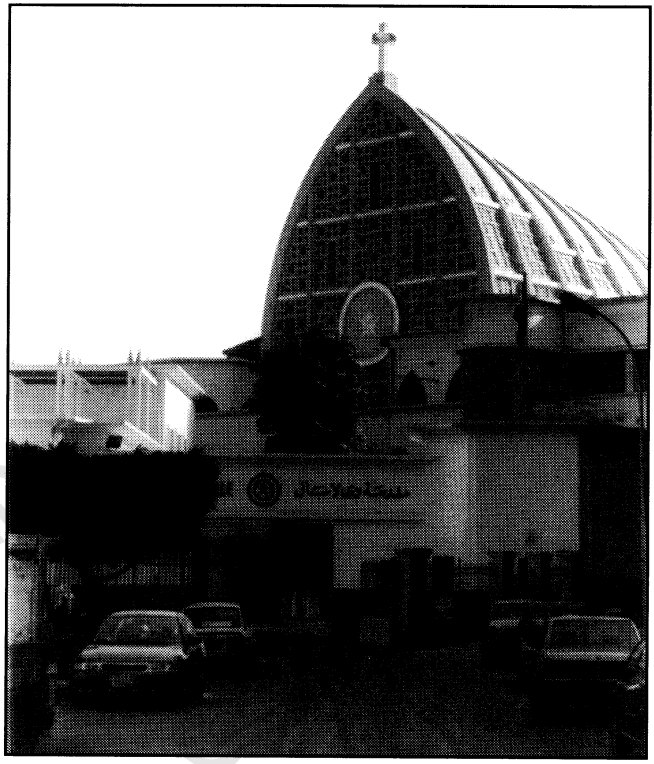

وتنتشر فيه المدارس الأجنبية .

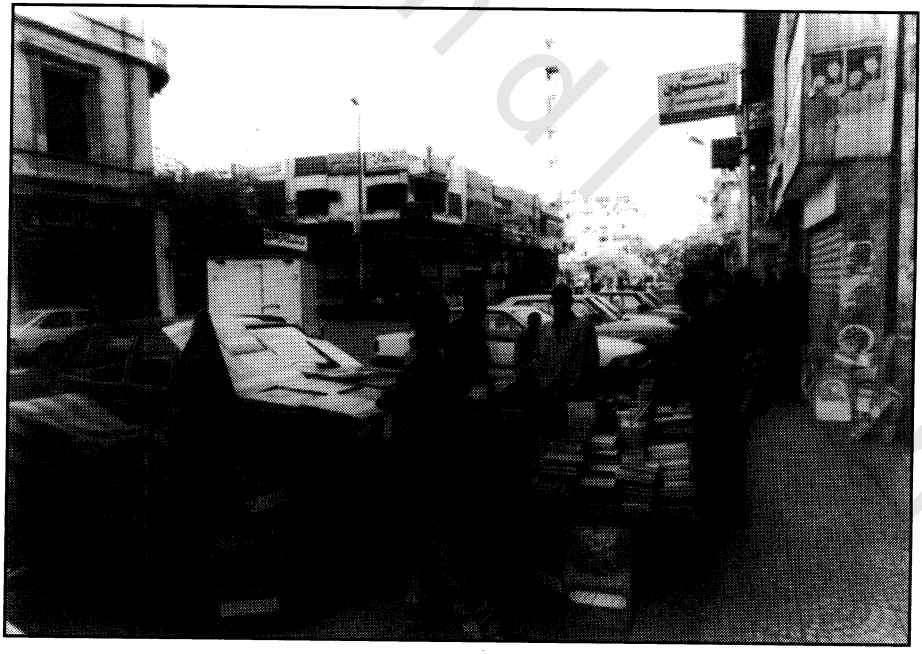

بعض ما بقى من الثقافة فى حى الفجالة . . بالذات فى الشارع الرئيسى للحى . . شارع كامل صدقى .